إِذَا خَـانَـتْـهُ فِـي يَـوْمٍ ضَـحُـوكِ
فَـكَـيْـفَ تَـكُـونُ فِـي يَـوْمٍ عَـبُـوسِ (١)

أنوك من عبد ومن عرسه

وخرج من عنده يوماً فقال:

[السريع]

أَنْـوَكُ مِـنْ عَـبْـدٍ وَمِـنْ عِـرْسِـهِ
مَـنْ حَـكَّـمَ الْـعَـبْـدَ عَـلَـى نَـفْـسِـهِ (٢)
وَإِنَّـمَـا يُـظْـهِـرُ تَـحْـكِـيـمُـهُ
تَـحَـكُّـمَ الإِفْـسَـادِ فِـي حِـسِّـهِ (٣)
مَـا مَـنْ يَـرَى أَنَّـكَ فِـي وَعْـدِهِ
كَـمَـنْ يَـرَى أَنَّـكَ فِـي حَـبْـسِـهِ (٤)
لَا يُـنْـجِـزُ الـمِـيـعَـادَ فِـي يَـوْمِـهِ
وَلَا يَـعِـي مَـا قَـالَ فِـي أَمْـسِـهِ (٥)

= الحبّ والولاء، لذا فالرؤوس تنحني إجلالاً وتعظيماً لشخصه، ولهذا تهون النفوس فتُبذل في سبيل صونه من كلّ مكروه.

(١) والحياة يومان: يوم سعد وأمن، إنه يوم تلاقي النفوس على الودّ والحبّ، فمن يخن في يوم كهذا لا يُقدّر ولا يُؤبه له لخيانته في أيام السلم، ولهذا ففي يوم عبوس، يوم الشدّة ويوم حاجة الإنسان إلى أخيه الإنسان يتكشّف الحبّ الحقيقي والإخلاص لمن اصطنعه.

(٢) الأنوك: الأحمق. العرس: الزوج. إنه عتاب النفس، يوجهه الشاعر إلى ذاته، فقد أخطأ التقدير إذ جعل عبداً يتحكّم بمصيره فلا يُحسن التخلص من قيود المصانعة، فقد جعل عبداً أسود وزوجته يتحكّمان به، وهو الحرّ؛ وتلك مهزلة المفارقات في هذه الحياة.

(٣) وممَّا يدلّ على سوء الحكم أن الشاعر بنى حكمه على نظرة خاطئة دفعه طمعه للسير فيها فاستحكم كافور بمصيره، ولقد نتج ذلك بسبب حسّه الفاسد وعدم تقديره للعواقب.

(٤) إنه أمل بإنفاذ بوعد، أمنيّة تُسعد في حال أصبح الوعد حقيقة، ولكن شيئاً من هذا لم يحدث، ذلك أن من يعد يُخلف الوعد بكيد، فإذا بالشاعر معلّق بالهواء، مرّة يُحسّ بأن الوعد قد يُصبح حقيقة ومرَّة أخرى يُحسّ بأنه مسجون لا يستطيع فكاكاً فيرحل عائداً إلى وطنه.

(٥) مشكلة الشاعر مع كافور تتمحور حول قضيتين: الأولى أنه لا يقدر على إنفاذ ما وعد =

وَإِنَّـــمَـــا تَـــحْـــتَـــالُ فِـــي جَـــذْبِـــهِ
كَـــأَنَّـــكَ الـــمَـــلَّاحُ فـــي قَـــلْـــسِـــهِ[١]
فَـــلَا تُـــرَجِّ ٱلْـــخَـــيْـــرَ عِـــنْـــدَ امْـــرِىءٍ
مَـــرَّتْ يَـــدُ الـــنَّـــخَّـــاسِ فـــي رَأْسِـــهِ[٢]
وَإِنْ عَـــرَاكَ الـــشَّـــكُّ فـــي نَـــفْـــسِـــهِ
بِـــحَـــالِـــهِ فَـــانْـــظُـــرْ إِلـــى جِـــنْـــسِـــهِ[٣]
فَـــقَـــلَّـــمَـــا يَـــلْـــؤُمُ فـــي ثَـــوْبِـــهِ
إِلَّا الَّـــذِي يَـــلْـــؤُمُ فـــي غِـــرْسِـــهِ[٤]
مَـــنْ وَجَـــدَ الـــمَـــذْهَـــبَ عَـــنْ قَـــدْرِهِ
لَـــمْ يَـــجِـــدِ الـــمَـــذْهَـــبَ عَـــنْ قَـــنْـــسِـــهِ[٥]

= بتحقيقه، والثانية أن كافوراً غافل كثير النسيان؛ ومن هنا لا يستحقّ أن يحكم بلاداً واسعة، والنسيان نقيصة بحدّ ذاتها.

(١) الملّاح: البحار. القلس: حبل السفينة تُشدّ به في مرساها. الحلّ في هذه الحالة يكمن بالمصانعة والدهاء للخلاص من هذه الورطة التي أوقع الشاعر بها نفسه علّه يحصل على مبتغاه، تماماً كالبحار يُمسك بحبل السفينة يشدّه لئلّا تُفلت منه، فيغرق وتنسلّ فيجرفها التيار خلاف ما يبغيه الملاح، فيضيع جهده سدى.

(٢) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٧٤. النخاس: بائع الدواب والعبيد. يصبّ الشاعر جام غضبه على كافور، إنه لا خير فيه ولا يُرتجى منه نفع، فقد لقي الأمرين من النخاس الذي قام ببيعه ضرباً وتنكيلاً ونخساً بالمنخاس تماماً كما يُفعل بحمار حارن.

(٣) عراك: غشيك، داخلك. يُخاطب الشاعر من شكّ بطبيعة كافور، هل هو من البشر؟ ومن أيّ نوع منهم؟ إنه زنجيّ عبد، والعبد لا يُرجى منه نفع، إنه كأبناء جنسه غباءً فضلاً عن خلوّه من كلّ مكرمة، بل إنه لئيم بطبعه، عنيد لا يتراجع عن عناده.

(٤) الغرس: جلدة رقيقة تخرج مع المولود ساعة ولادته. يرى الشاعر أن اللؤم متأصل بمن اتّصف بتلك الرذيلة، فمنذ ولادة المرء تغطيه هذه الصفة فتشوّه شكله وحياته طوالها.

(٥) القنس: الأصل. يُعلّل الشاعر مسلك كافور؛ فهو وإن تملّك أمور العباد وناصية البلاد، سرعان ما يعود لأصل العبودية المبنية على اللؤم والغدر فيه، فالعرق دسّاس يُحرّك العبد بلا شعور منه ودون وعي.